"مقاربة فكرية ـ تاريخية لروحية وخصائص حضارة المشرق العربي القديم"

نموذج تدمر

د.بشار محمد خليف

دمشق – الجمهورية العربية السورية

dr-khlif@scs-net.org

- البنية الديمغرافية في تدمر
- تدمر في عصر نشوء الممالك الكنعانية الأمورية الأولى: ٢٠٠٠ ـ ١٦٠٠ ق.م
- تدمر في العصر السلوقي ٣٣٢ ق.م ـ ٦٣ ق.م
- تدمر والأمبرطورية الرومانية ٦٣ ق.م ـ ٢٧٣ م
- خطوط التجارة الدولية في عصر تدمر الذهبي
- ثقافة تدمر في القرون الميلادية الثلاثة الأولى
- الصراع السياسي بين إمبراطوريات عالم القرون الميلادية الثلاثة الأولى
- تدمر وعصر الملوك التدامرة

إذا كان تعريف اصطلاح الحضارة la civilisation ينص على أنها مجمل المنجزات المادية ـ الروحية ، لمجتمع ما في مسار التاريخ البشري ، فإن ما ينبغي الإشارة إليه هو البعد الإنساني لهذه المنجزات المادية ـ الروحية وإلاّ استحال كل اختراع أو منجز مدمّر إلى فعل حضاري وهذا لا يتسق برأينا مع مصطلح الحضارة الإنسانية.

لذا يمكننا أن نحدد هذا المصطلح بقولنا أن الحضارة هي مجمل المنجزات المادية ـ الروحية ذات البعد الأخلاقي ـ الإنساني لمجتمع ما في مسار التاريخ البشري.

وهذا ما نستطيع تحديده حين نتابع تاريخ الحضارية السورية ، فمن بداءة الزراعة إلى بواكير المدن مروراً باختراع الكتابة ثم الأبجدية والشرائع والعلوم والفن والآداب ، إلى المعالم الواضحة في البعد الإنساني حيث نلاحظ أننا أمام هم إنساني مؤسس بامتياز في الذهنية الحضارية السورية ، وهذا ما سوف نلاحظه من خلال قراءة ومتابعة تاريخ تدمر كنموذج يختزل قيم ومعايير وذهنية الحضارة السورية.

هذه المملكة التي امتدت أطلال آثارها لحوالي ١٢ كم٢ والتي تقع وسط سورية وفي باديتها.. والتي استطاعت تبعاً للظروف السياسية الدولية وظروفها الذاتية آنذاك من أن تحقق وتعبرّ عن أصالة الحضارة السورية وبعدها الإنساني وفعلها السيادي والحضاري... هذا ما جعل هذه المدينة الصغيرة آنذاك تؤسس لإنشاء إمبراطورية شملت المشرق العربي بجناحيه الشامي والرافدي وجزء من الجزيرة العربية والأناضول ومصر وكادت أن تطرق أبواب روما عاصمة الإمبراطورية الرومانية.

يقول خالد الأسعد: (إنّ من طبيعة الشخصية السورية عبر التاريخ أن تؤثر وتتأثر بالثقافات الأخرى لكنها لا تتمثل من الثقافات إلاّ ما يلائم شخصيتها ولا تسمح لأي ثقافة بأن تطغى عليها أو تحرفها عن محورها).[١]

وهذا ما نفهمه وتؤكده عدة حقائق حول ثقافة تدمر وفرادتها رغم تبعيتها في القرون الثلاثة الميلادية الأولى للإمبراطورية الرومانية:

أولاً: ثمة حادثة جرت في تدمر في القرن الثالث ميلادي وفي فترة حكم زنوبيا لتدمر (٢٦٨ ـ ٢٧٢) م. حيث أن زنوبيا عاقبت تاجراً تدمرياً لارتكابه أخطاء وتجاوزه للقوانين التدمرية ، فطلبت أن يوضع في حلبة مسرح تدمر حتى تنهشه الوحوش الضاربة والجائعة أمام الجمهور. ومعلوم أن هذا الطقس أو التقليد الوحشي هو ابتكار روماني ومارسه الرومان بإخلاص.

وفي الموعد المحدد تجمهر أهل تدمر ، ونزل التاجر مرتعداً إلى الحلبة وحين ساد الصمت رهبة.. فتحت الأبواب على الوحوش الجائعة ، ليخرج ديك إلى الحلبة.. فتضج الحشود بالضحك والبهجة.[٢]

إن موقف زنوبيا هذا يعبر عن عدة حقائق:

أولها: رفضها للتقليد الروماني الذي لا يتناسب مع الخصائص الروحية للنفسية السورية.

ثانيها: أن العقاب المعنوي الذي تعرّض له التاجر يفوق ما كان سيحصل له في حال افترسته الوحوش ، سيما وأن تدمر بخواصها المجتمعية كانت تكرّم الأشخاص الذين يحملون هماً مجتمعياً يفوق همهم الشخصي وتخلدهم في نصب تذكارية تعلّق على أعمدة تدمر.

ثانياً: عام ١٩٣ م قام أفراد الحرس الإمبراطوري الروماني بعرض الإمبراطورية للبيع بالمزاد واشتراها ديدوس يوليانوس بـ /٢٥/ ألف سترسة.

وحين بلغ النبأ سمع الجيوش الرومانية ثارت وأخذت كل فرقة تنصب قائدها إمبراطورا إلى أن قام قائد جيش جنوب الدانوب سبتيم سفير بالاستيلاء على عرش روما مفتتحاً حكم الأباطرة السوريين للإمبراطورية الرومانية وعلى هذا يعقّب جان بابليون بالقول:

(إن وصول سبتموس سفروس إلى عرش روما كان في نظر الكثيرين انتقاماً للفكر الشرقي القديم من روما)[٣] وإن هذا الموقف لسبتيم سفير يؤكد على الخصائص الحضارية ـ الإنسانية عبر إنقاذه للإمبراطورية من جهة وعبر تكريسه للفعل الحضاري السوري في روما وإمبراطوريتها آنذاك وهذا ما سنلاحظه في انعكاس المعتقدات السورية ومن ثم الديانات في فعلها على بنية الفكر الروماني بدءاً من عبادة إله الشمس الحمصي وصولاً إلى المسيحية التي قضت على الفكر الروماني ومعتقداته ومروراً بالفلسفات ذات الخصائص المشرقية كالرواقية ثم الأفلاطونية الحديثة.

ثالثاً: كانت القرون الثلاثة الميلادية الأولى هي عصر العبودية والتجارة بالعبيد ، وكون تدمر تقع على خط التجارة الرئيسي الدولي آنذاك بين الشرق والغرب والشمال والجنوب ، كان موقفها من تجارة العبيد أصيلاً ويعبرّ عن رفضها الممتاز لمثل هذه التجارة اللاإنسانية والتي مارستها روما بإخلاص.

يذكر اسحاق شيفمان أنّ تدمر لم تكن تحبذ ممارسة تجارة العبيد ، ودليل ذلك أنّ نص التعرفة كان يفرض ضريبة مضاعفة على استيراد العبيد مقارنة مع ضريبة البيع والشراء الحاصلة داخل حدود تدمر.[٤]

رابعاً: كان القانون الروماني يحرم وجود المدافن والمقابر داخل المدن لكن تدمر أشادت مدافنها أمام سور المدينة وداخل الأسوار. وهذا فعل سيادي يتناسب مع روحية المشرق العربي.

خامساً: كانت تدمر تكتب القوانين العالمية التجارية باللغة التدمرية وتضاف إليها إحدى اللغات اللاتينية أو اليونانية إما أن تكتب بلغة الأخر فهذا ضرب من المحال وخير شاهد على ذلك هو قانون التعرفة الجمركية الذي سنّته تدمر عام ١٣٧م والذي حوى الكتابة التدمرية واليونانية.

يقول المؤرخ مومزين: «إن تدمر كانت تعتبر مستعمرة رومانية إلاّ أن تبعيتها للإمبراطورية الرومانية كانت ذات طابع فريد تذكرنا على الأرجح بالممالك التابعة اسمياً لروما».[٥] أما المؤرخ روستوفنسف فيقول حول نفس الموضوع: «إن تدمر لم تكن في يوم من الأيام مدينة تابعة للمقاطعة الرومانية وعندما حصلت على وضع معمرة كانت تتمتع بقدر ملحوظ من الاستقلالية لكن الحكومة الرومانية أدخلت تدمر في مجال حمايتها تماماً».[٦]

سادساً: تميزت الحضارة السورية وعبر مسارها التاريخي بروحية التسامح وبتآلف الاختلاف تحت سقف الولاء المديني. ولعل تدمر تعبرّ عن هذه الخاصية بوضوح عبر وجود ستين إلهاً في تدمر تدين بهم مختلف الشرائح والقبائل ولم تذكر النصوص التدمرية أي حادثة بين أتباع إله وأتباع إله آخر ، لا بل إن موقف تدمر من المسيحية ذلك الدين الناشئ آنذاك كان متسامحاً رغم موقف روما المغاير لموقف تدمر وقد استطاعت زنوبيا أن تضم إلى بلاطها أسقف أنطاكيا بولس السميساطي الذي كان يمثل المعتقد الوطني في مقابل الرؤية الرومانية للمسيحية.

يقول رينيه دوسو في كتابه الديانات السورية القديمة: «لقد اتخذت تدمر شكل العاصمة مما جعلها تفرض على الآلهة التي

استقبلتها مع القبائل التي تعبدها سمة محلية وتجمعاً لا مثيل له من جهة أخرى». (٧)

أما شيفمان فيذكر أن زنوبيا استغلت الانقسام الناشئ بين مسيحي أنطاكيا لمصلحتها وذلك باعتمادها على بولص السميساطي وتابعيه حيث أنه من فرقة مسيحية لم تكن تعترف بالأقاليم الثلاثة للمسيح وقد حصل بولص السميساطي على وظيفة نائب عام من زنوبيا حيث كان يمثل مصالح فقراء المسيحيين وهي الفئة التي كان منها ويدافع عنها الآن. (٨)

والجدير ذكره هنا هو أنّ (أورليان) حين قضى على تدمر نزع عن بولص لقب الأسقفية وأقره لشخص آخر مؤيد للبطاركة الإيطاليين بمن فيهم بطرك روما.

ولعلنا هنا أمام صراع سيادي بين تدمر المستعمرة (بفتح الميم)و بين روما المستعمرة (بكسر الميم) وهذا ما يؤكده خ ـ تيكسدور في كتابه الحياة الدينية في سورية قبل الإسلام: «كان بولص السميساطي قائماً بالمصالح التدمرية في أنطاكيا وكان يمثل باختيار زنوبيا له مقاومة الجانب السوري ضد الرومنة.. وحين عزل الامبراطور أورليان بولص كان يرمي بذلك إلى هدف سياسي» (٩)

وما يلاحظ في مجال التسامح في تدمر وخلو الكتابات والنصوص التدمرية من صراعات بين الناس لأسباب معتقدية أن مقولة فصل المعتقد عن الدولة كان محققاً وهذا ما جعل تدمر تفعل حضارياً وتواجه امبراطورية روما التي امتدت من الأطلس وبحر الشمال إلى الفرات ومن الراين والدانوب إلى الصحراء الكبرى.

سابعاً: ثمة مقولة للحكيم الآرامي أحيقار مفادها «لا ترسل الصيدوني /أي ابن البحر/ إلى الصحراء ولا ترسل ابن الصحراء إلى البحر».

والذي يبدو أن تدمر لم تأخذ بهذا القول لا بل عكسته ممارسة وهذا يعني أن تدمر لم تكن هماً جغرافياً. فالنصوص التدمرية والنقوش تتحدث عن وجود أسطول بحري للتدمريين يقوده تدمريون ينطلق من الخليج العربي ، بمعنى أن التدمري مارس تجارته البحرية والبرية بنفسه.

وقد أنشأ التدمريون موانئ لهم على الخليج العربي في ميسان وعلى النيل قرب ميناء أسوان(قفط)، بالإضافة إلى دورا أوربوس لا بل أن حاكم البحرين كان تدمرياً. هذا يعني أن البيئة الطبيعية طوعّها التدمريون لمزيد من الفعل الحضاري لا الانفعال فقط.

ثامناً: كان للمرأة السورية في مسار الحضارة السورية حضور فاعل وجوهري وهذا ما لا نلاحظه في مساق الإمبراطورية الرومانية فعلى مسار الأباطرة الرومان الكثر لم نلاحظ دوراً فاعلاً للمرأة الرومانية ولو من البلاط في حمل هم الامبراطورية وهذا ما نجده صميمياً في الحضارة السورية فمن جوليا دومنة الحمصية زوجة سبتيم سفير إلى أخواتها اللواتي حكمن عرش روما عن طريق أولادهن إلى زنوبيا التي تشبه على ما يبدو مسار جوليا دومنة ولاحقاً سوف تكون تيودورا السورية من منبج زوجة جوستنيان الامبراطور ناهيك عن أليسار الكنعانية وصفو نسب القرطاجية.

تاسعاً: لعلنا نشارك فرانتس ألتهايم فكرته من أن القرن الثالث ميلادي تميز بشكل خاص بازدهار العروبة فقد أخذت تتنامى دول وممالك عربية مثل الحضر والحيرة وتدمر. (١٠)

والعروبة ضمن هذا المنحى لم تكن عروبة العنصر بل عروبة حضارية أساسها التمازج البشري الذي تفاعل إيجابياً مع البيئة الطبيعية والمجال الحيوي الطبيعي فتولدت لديه خصائص هي حصيلة كل الموجات البشرية المتفاعلة التي سكنت تدمر واستوطنت في واحتها وهذا ما سنناقشه في الفقرة التالية.

البنية الديمغرافية في تدمر

استوطن الإنسان واحة تدمر وحوّل ينابيعها في الألف السادس قبل الميلاد وقد أظهرت التقنيات في معبد بل وسط تدمر دلالات استيطان في تدمر تعود إلى الألفين السابع والسادس قبل الميلاد.

وبحسب علم الأعراق فإن الناس هم من النوع المتوسطي وهم الذين كانوا يجولون في العصور التاريخية بين الجزيرة العربية والمشرق العربي القديم ومنهم من استوطن في واحات منها تدمر. (البني ـ ١٩٧٨) ففي الألف الثالث أو الثاني قبل الميلاد كان سكان تدمر من الأموريين والكنعانيين ومع حلول القرن الثاني عشر قبل الميلاد حيث ساد الآراميون في المشرق العربي وتمازجوا في تدمر مع الأموريين والكنعانيين ثم اعتباراً من القرن الثامن قبل الميلاد كانت القبائل العربية عبر جولانها تستقر في واحة تدمر وتدريجياً سادت هذه القبائل في بادية الشام.

وبذا صارت بنية تدمر الديمغرافية تتألف من الأموريين والكنعانيين والآراميين والعرب /وهذه حالة توصيفية لا تعبير عن هوية/ ومع حلول القرن الميلادي الأول كان عدد العرب مساوياً لعدد الآراميين في تدمر (عدنان البني ـ تدمر والتدمريون) وبالتدريج ساد العرب على تدمر وهذا ما تجلى في أسرة أذينة زوج زنوبيا الذي كان من منبت عربي وهذا ما نلاحظه في بنية البانثيون التدمري فمن بين ٦٠ إلهاً نعثر على ٢٠ إلهاً عربياً ولعل أقدم نص تدمري يعود إلى ٤٤ ق. م يتضمن أسماء عربية وتعابير عربية مميزة.

وقد توصل اسحاق شيفمان في كتابه (المجتمع السوري القديم) إلى أن مجتمع تدمر بحسب الوثائق التدمرية كان يتألف من نسبة جيدة من القبائل العربية وذلك في القرون الميلادية الثلاثة الأولى.

ويذكر شلومبرجه أن ثمة اتحاداً بين أربع قبائل أساسية أدى إلى ولادة تدمر في القرن الأول الميلادي أو قبل ذلك وهي: بني قمر ، بني متبول ، بني معزن ، بني عطر. (١١)

وقد انضوت باقي القبائل تحت جناح هذه القبائل الأكبر حيث يذكر تيكسيدور أنه في تدمر انتظمت القبائل والعشائر من خلال التقاليد الدينية والمواريث الأخلاقية في أربع مجموعات قبلية تترأسها إحدى القبائل العربية الأربع المسيطرة على المدينة (١٢) وتعلمنا المدونات أنه كان ثمة معبد محدد لكل من هذه القبائل الأربع. ومن العشائر المنضوية تحت لواء القبائل العربية والتي استطاع شيفمان تحديدها نذكر:

بني عذيب ، بني زبيد ، بني نبت ، بني ختري ، بني ميث ، بني مجدت ، بني علاي ، بني حكيم ، بني بور.. الخ (١٣)

بناءً على كل ذلك يمكننا تحديد هوية تدمر السكانية والثقافية بأنها مدينة سورية عربية أصيلة وهي حصيلة تمازج بين الأموريين والكنعانيين والآراميين والعرب ما أدى إلى تبلور معنى حضاري للعروبة يعكس ملامح شخصية عربية مشرقية سوف تغلّف مجرى الحضارة السورية وصولاً إلى الفتح العربي.

تدمر في عصر نشوء الممالك الكنعانية الأمورية الأولى ٢٠٠٠ ـ ١٦٠٠ ق. م

إذا كان أول ذكر لتدمر والتدمريين ورد في إحدى الوثائق الآشورية المكتشفة في الأناضول في مستعمرة آشورية موقع كولتبة ، كانيش وذلك في حوالي ٢١٠٠ م فإن هذا يعني أن تدمر كانت تشكل فاعلية تجارية ما ولو كانت ثانوية. وقد أجرى الكونت دومنيل تنقيباً في معبد (بل) في تدمر حيث توصل إلى أنه كان هناك مدينة أمورية وأنها كانت عامرة دون انقطاع طيلة الفترة بين ٢٠٠٠ ـ ١٢٠٠ ق. م وذكرت نقوش كانيش أن تدمر كانت مركزاً لشراء الفضة ولا يبدو من المعطيات والأدلة الأثرية التي تعود لهذا العصر أن تدمر كانت تشكل فاعلية تاريخية من الدرجة الأولى بل أنها انفعلت بالوضع التجاري والنشاط الاقتصادي عبر تبعيتها ـ نوعاً ما ـ للمدن الأقوى آنذاك ولا سيما مملكة قطنة ، قرب حمص.

وبغية إيضاح الواقع التاريخي لا بد أن نضيء على الواقع التاريخي السياسي للمشرق العربي في هذا العصر مع الأخذ بالاعتبار أن ذلك العصر شهد اختفاء الفاعلية التاريخية للسومريين مع نهاية الألف الثالث قبل الميلاد وبداية الألف الثاني وتوافق ذلك مع انتشار الأورمات الكنعانية الأمورية في المشرق العربي حيث أسست ممالك مدن كنعانية أمورية.

ففي الرافدين أسست هذه الأورمات دويلات في بابل وآشور أمّا في بلاد الشام فقد تأسست ممالك في ماري ويمحاد (حلب) وكركميش وقطنة وجبلا (جبيل) ودان وحاصور ومجدو.

ولم يكن الوعي المجتمعي ـ المديني ليرقى بين هذه الممالك إلى درجة الوحدة أو الاتحاد السياسي للمشرق العربي القديم إلا في عهد الملك الأموري حمورابي ، الذي استطاع توحيد المشرق العربي تحت سيادة بابل رغم وجود محاولات سابقة موفقة في هذا المجال قام بها صرغون الأكادي الأموري وغيره ، والتي استندت على أساس استراتيجي.

وفي بلاد الشام تركزت الفاعلية التاريخية بين ماري في الشرق وقطنة في الغرب مما جعل الخط التجاري بينهما يمر حكماً من تدمر لذا فاننا نلاحظ ورود ذكر تدمر في وثائق ماري حيث أفادت أن تدمر كانت محطة قوافل بين مدن بلاد الرافدين ومدن بلاد الشام الشمالية والجنوبية وهذا يؤكد أن تدمر استطاعت الاستفادة من موقعها الاستراتيجي بين مدن المشرق العربي في الشرق والغرب وأصبحت محطة هامة على الطريق التجاري بين أفغانستان وجنوب شواطئ المتوسط بلاد الشام ومصر ، ولعل الإضاءة على الطرق التجارية آنذاك توضح أهمية تدمر كمحطة تجارية فبين الرافدين وبلاد الشام [١٤] كان ثمة طريقان تجاريان ، الأول: طريق شمالي يحاذي الفرات ويصل إلى يمحاد (حلب). الثاني: طريق جنوبي يحاذي الفرات الأوسط عند ماري ويصل إلى قطنة (قرب حمص) ماراً بتدمر إلى سواحل البحر المتوسط في جبيل. وقد ورد في وثائق ماري أن أخشاب الأرز وغيرها كانت تمر في قطنة لتصل إلى الفرات عبر تدمر.

ومن طرائف أحداث ذلك العصر ما ورد في إحدى وثائق ماري حيث تذكر أن يسمع حدد حاكم ماري الآشوري المحتل حين أراد السفر إلى قطنة تحاشى المرور بحلب /يمحاد/ لأن حاكم ماري الشرعي والمطرود زمري ليم موجود في يمحاد وبذا سلك يسمع حدد إلى تدمر ثم قطنة.

وقد ذكرت رسالة من حاكم قطنة إلى حاكم ماري /يسمع حدد/ أن البادية السورية كانت تقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: مملكة يمحاد (حلب) إلى الشمال.

القسم الثاني: مملكة قطنة في الشمال الغربي حيث تتبع لها تدمر.

القسم الثالث: مملكة ماري في الجنوب الشرقي.

وهنا لا بد من الإشارة إلى حصول تطور في وسائل النقل التجاري فبعد أن كانت الحمير سيدة وسائل النقل نلاحظ أنه ومنذ ١٨٠٠ ق.م تقريباً يظهر الحصان كوسيلة نقل تجارية سريعة ثم في حوالي ١٣٠٠ ق.م يظهر الجمل في الاستخدام.

إن الوثائق الأثرية تشير في ذلك العصر إلى علاقات جيدة تربط بين ماري وقطنة ويبدو أنه مع سقوط ماري بيد حمورابي البابلي في ١٧٥٩ ق. م ضعفت فاعلية قطنة التاريخية وهذا ما انسحب على تدمر التابعة لها ومع حلول عام ١٦٠٠ ق. م انتهى عصر المالك الكنعانية الأمورية الكبيرة والمستقلة ليأتي عصر الممالك الكنعانية الصغيرة والضعيفة [١٥] وهذا ما دفع الحثيين لاحتلال بابل ثم احتلها الكيشيون كما خضعت المناطق الممتدة من جبال زاغروس حتى البحر المتوسط للنفوذ الحوري الميتاني وتعاظم النفوذ المصري في بلاد الشام.

وهذا ما أدى إلى تحول الخط التجاري منذ منتصف الألف الثاني قبل الميلاد إلى مملكة إيمار حيث أصبحت ملتقى القوافل القوافل القادمة من الشرق أو من الغرب ومن البادية أو الجزيرة وقد عثر في وثائق إيمار التي تعود إلى ١٣٠٠ ـ ١٢٠٠ ق. م على ذكر لتدمر والتدمريين وقد عثر في هذا الموقع على أول طبعة ختم تدمري معروفة حتى الآن مما يدل على وجود علاقة بين تدمر وإيمار.

يقول الدكتور نقولا زيادة: «بدأت تجارة تدمر والتدمريين تلفت الانتباه في الألف الأول قبل الميلاد إن لم يكن ذلك في أواخر الألف الثاني» [١٦]، وهنا يرد ذكر تدمر في وثائق الملك الأشوري تيغلات فلاصر الأول ١١١٢ ـ ١٠٧٤ ق. م وقد ذكرت الوثائق هذه أن الملك عبر الفرات ٢٨ مرة بمعدل مرتين كل سنة وقد مرّ بتدمر التي هي في بلاد العموريين ووصل بحر العموريين الكبير أي البحر المتوسط.

في حدود ١٢٠٠ ق. م تغزو شعوب البحر المراكز الساحلية السورية وتخرّبها لكن الأجزاء الشرقية من سورية بقيت بمنأى عنهم ومشغولة باستقبال موجات الآراميين التي تغلغلت داخل سورية ووصلت حتى الجبال الساحلية وقد استوطنت في تدمر أيضاً. ثم ومع القرن الثامن قبل الميلاد استقرت القبائل العربية تدريجياً في تدمر إلى جانب الآراميين وحين هاجم الملك الآشوري آشور بانيبال ٦٦٤ ـ ٦٢٩ ق. م دمشق فلا بد أنه مرّ في البادية. وتذكر الوثائق نشوء تحالف بين القبائل العربية والآراميين والملك البابلي شمش ـ شون ـ أكين ضد الملك الآشوري الذي أمر بإحراق مناطق البادية.

في فترة الفاعلية الآشورية هذه تمت حماية الطرق التجارية فتوسعت النشاطات التجارية وأصبحت تدمر مدينة قوافل كبيرة ومع هذا فإن اسم تدمر يختفي من الوثائق الأثرية بين القرن الحادي عشر قبل الميلاد وحتى القرن الثالث قبل الميلاد حيث تسقط سورية تحت حكم السلوقيين ٣٣٢ ق. م.

تدمر في العصر السلوقي ٣٣٢ ق. م ـ ٦٣ ق. م

مع سقوط بابل في آذار عام ٥٣٨ ق. م بيد الفرس بقيادة كورش تشكلت امبراطورية فارسية على أنقاض امبراطورية بابل شاملة الرافدين وبلاد الشام وبالتدريج استطاعت أن تضم العالم المتمدن آنذاك الممتد من مصر والمدن الأيونية في آسيا الصغرى إلى البنجاب في الهند [١٧] والجدير ذكره هنا أن اللغة الرسمية للامبراطورية الفارسية كانت اللغة الآرامية حيث كانت اللغة العالمية آنذاك.

كما قام كورش بإصدار مرسوم يخول اليهود المسبيين في بابل العودة إلى فلسطين وهذا سيكون لاحقاً شأنا مهماً في موقف مملكة تدمر من اليهود ولا سيما في العهد الروماني.

إلى أن يأتي عام ٣٣٣ ق. م حيث تقع معركة أسوس بين الفرس والمقدونيين بقيادة الاسكندر الكبير المقدوني حيث ينتصر المقدونيون لتبدأ مرحلة جديدة في تاريخ المشرق العربي وتالياً انعكاس الظروف السياسية في العصر السلوقي على تدمر التي يبدو أنها كانت مدينة مكتفية بنفسها وتمارس تجارتها ونشاطاتها بعيداً عن النظم التجارية السلوقية.

ولدى تتبع خطوط التجارة الدولية في العصر السلوقي في المشرق العربي نلاحظ أن تدمر لم تكن تتبع شبكة الخطوط التجارية للدولة السلوقية ومع هذا ولكونها فاعلة حضارياً وليست منفعلة بالآخر إلى حد التماهي فقد استطاعت أن تؤسس خطوط تجارتها وتمارسها. ونعتقد أن تدمر في العهد السلوقي كانت في مرحلة المخاض الحضاري الذي سوف ينجب فاعلية حضارية تاريخية في القرون الثلاثة الميلادية الأولى. فقد استطاعت تدمر في العصر الهلنستي أن تجلب إليها خطوط القوافل لتكون محطة بين الفرات من جهة وحمص وأنطاكية من جهة أخرى.

أما طرق التجارة السلوقية الرسمية فقد استعاضت عن تدمر بدورا أوربوس على الفرات وكان ثمة طريق شمالية اعتمدتها الدولة السلوقية حيث تعبر أنطاكية وسلوقية (السويدية) إلى حلب ثم تنعطف إلى الفرات ولكنّ هذه الطريق هجرت عندما قام الفرثيون باحتلال الرافدين في القرن الثاني ق. م. وكانت هناك طريق جنوبية من البحر الأحمر إلى الخليج العربي وهذه الطريق سببت ازدهار الاسكندرية والبتراء لحين العصر الروماني عام ٦٣ ق. م.

ويبدو أن تدمر كانت تسيطر على دورا أوربوس حيث جعلت منها قلعة عسكرية لحماية التجارة التدمرية تماماً كما أراد لها السلوقيون حين أبدوا اهتمامهم بموقعها الاستراتيجي.

وبالرجوع إلى الوثائق السلوقية نلاحظ أن تدمر لم تكن تحظى بأهمية المدن الأخرى، فالدولة السلوقية كانت تمنح الألقاب للمدن السورية الأصيلة والسلوقية التأسيس وقد تأرجحت هذه الألقاب بشكل عام بين مدن تمتلك «الحصانة» أو مدن «مقدسة» أو مدن «مقدسة محرّمة» أو «مدن إلهية» [١٨]. وهذه الألقاب كانت تعطي المدن حصانة جزئية في المسائل القانونية مما يحتم عدم تعرضها للقوة من قبل الدولة.

وتذكر الوثائق أسماء مدن منحت هذه الألقاب ولم يرد اسم تدمر بينها مما يدل كما أسلفنا إلى عدم اعطاء الدولة السلوقية تدمر أي حظوة، وقد يعزى هذا إلى ابتعاد خطوط التجارة السلوقية الرسمية عنها.

ومن المدن التي منحت ألقاباً نذكر: دمشق، عسقلون، جبيل، أفاميا، غزة، اللاذقية، صيدا، صور، طرابلس [١٩]. ولكن الذي يبدو أن هذا لم يمنع تدمر من انشاء جيشها الخاص والذي ساهم إلى جانب الجيش السلوقي في حربه ضد البطالمة في مصر، حيث تذكر الوثائق أنه في معركة «رافيا» والتي جرت بين السلوقيين والبطالمة كان إلى جانب الملك السلوقي انطيوخوس الثالث شيخ عربي يدعى «زبدي بل» حيث كان تحت امرته ١٠ آلاف مقاتل ويبدو أن هذا الشيخ تدمريّ يؤكد ذلك اسمه [٢٠].

وتذكر الوثائق أيضاً أن زبدي ايل العربي /وقد يكون تدمرياً/ قطع رأس الملك السلوقي اسكندر بالآس، عام ١٤٥ ق. م الذي طالب وحصل على عرش سورية مدّعياً أنه ابن أنطيوخوس الرابع.

ويبدو أنه في حوالي ٣٠٠ ق. م أصبحت تدمر جزءاً من الامبراطورية السلوقية لكن الفاعلية التاريخية آنذاك تحولت بمشيئة الدولةالسلوقية، إلى مدينة «سلوقية» على نهر دجلة ومدينة أنطاكية.

ومع هذا فقد استطاعت الثقافة التدمرية أن تؤكد فاعليتها الحضارية، أكّد ذلك العثور في دورا أوروبوس، على رسم منقوش على صفيحة حجرية يعود تاريخه إلى ١٥٨ ق. م يبين سلوقس نيكاتور مؤسس الدولة السلوقية في زيّه العسكري الذي يتألف من درع هلنستي تحت رداء قصير وينتعل جزمة عسكرية عالية الساق وكان يحمل في أذنيه قرطين كبيرين أما سيفه كما بدا من الرسم فقد كان من النموذج الفارسي ـ التدمري. [٢١]

أما النشاط التجاري لتدمر في هذا العصر؛ فقد اعتبرت تدمر وسيطاً تجارياً بين الشرق الأقصى والبحر المتوسط، ومع نهاية القرن الثاني ق. م وحين عادت العلاقات التجارية بين الصين والامبراطورية الفرثية في بلاد فارس إلى الحياة، عاد طريق الحرير للوصول إلى البحر المتوسط عبر تدمر.

وتؤكد المعطيات التاريخية أن التدمريين كانوا أكثر فاعلية تجارية من السلوقيين، فمع مطلع القرن الأول قبل الميلاد كان رجال القوافل التدامرة ينظمون طريق الفرات التي كانت تمر بدورا أوروبوس ثم تنزل بمحاذاة الفرات إلى المحمرة في مملكة ميسان على الخليج العربي.

وحين كان الفرثيون يقطعون طريق الحرير المار عبر تدمر كانت تدمر تستخدم طريقاً آخر عبر الفرات إلى الخليج العربي ثم إلى الشرق الأقصى [٢٢].

ومع انتهاء فاعلية «سلوقية» دجلة التجارية في مطلع القرن الأول قبل الميلاد، كونها معبراً تجارياً ورثت تدمر هذه المهمة، واستطاعت السيطرة على طريق التجارة وضمان أمنه وتقديم المياه والأغذية للقوافل وحوائجها، وهذا ماسوف يتفّعل في القرون اللاحقة.

أما لجهة الوضع الديمغرافي لتدمر في العصر الهلنستي فقد تألفت من الآراميين والعرب، ويذكر الدكتور البني أن عدد العرب كان مساوياً لعدد الآراميين.

ويبدو من مجمل المعطيات التاريخية أن تدمر في العصر السلوقي كانت مدينة عامرة تتمتع باستقلالها ومارست فاعليتها التجارية بغض النظر عن خطوط التجارة الرسمية للدولة السلوقية وتمكنت بذلك من تأسيس مشروعها الحضاري والذي سوف يتبدى انطلاقاً من القرن الأول الميلادي.

تدمر والأمبرطورية الرومانية ٦٣ ق. م ـ ٢٧٣ م

لابد من الإشارة إلى أنه وفي القرن الثاني قبل الميلاد بدأ نجم روما، يسطع في الأفق الغربي وهذا ما جعلها، تتدخل في شؤون السلوقيين في سورية والبطالمة في مصر، وحين حمل الملك السلوقي أنطيوخوس الرابع (١٧٥ ـ ١٦٤ ق.م) على مصر وكاد أن يستولي عليها تدخلّت روما وأمرته بالرجوع حفاظاً على دولة البطالمة. لقد أصبحت روما قوية وكان من واجب الدول الأضعف أن تسمع كلمتها.

ففي عام ٦٣ ق. م يدخل الرومان سورية والغاية من ذلك أن تكون بلاد الشام محطة للجيوش الرومانية في توسّعها نحو الشرق. وهذا سوف يستتبع نشوء خطوط تجارة عالمية جديدة بين الشرق والغرب، وبين الشمال والجنوب تبعاً للطبوغرافيا والجغرافيا السياسية للإمبراطورية الرومانية.

ومع أن بلاد الشام وقعت تحت الاحتلال الروماني إلا أن تدمر لم تضم رسمياً إلى الإمبراطورية الرومانية إلا في حدود عام ١٨ ميلادي[٢٣]. وهذا الأمر لم يحصل نتيجة صراع عسكري بقدر ما كان انعكاساً لمصالح الطرفين، فروما تريد أن تكون تدمر قوية وهي التي تسيطر على الفرات كما أن لتدمر مصلحة ألاّ تدخل في صراع عسكري مع روما يفقدها مكانتها التجارية والاستراتيجية والحضارية والتي بدأت بتأسيسها في العصر السلوقي.

كان يهم روما أن تكون تدمر قوية في وجه الفرس لحماية خطوط التجارة العالمية والمارة من تدمر كما والمارة من والى الخليج العربي ولكن لا مانع من انضوائها تحت جناح الإمبراطورية الرومانية. يقول المؤرخ مومزين: إن تدمر كانت تعتبر مستعمرة رومانية الاّ أن تبعيتها للإمبراطورية الرومانية كانت ذات طابع فريد تذكرنا على الأرجح بالممالك التابعة اسمياً لروما.[٢٤]

ولا بد هنا من ذكر حادثة جرت عام (١٤ ق. م) حيث أرسل أنطونيو (زوج كليوباترا) فرسانه إلى تدمر لنهبها ولم تكن تدمر آنذاك تشكل خطراً ما على روما ولكن دافع أنطونيو كان نهب المدينة ما يعني أن تدمر كانت مدينة ذات اعتبار وازدهار.. وهذا ما يؤكده المؤرخ أبيان المعاصر لتلك الفترة حيث يقول: «أرسل أنطونيو فرسانه لنهب المدينة متهماً إياها اتهاماً سخيفاً بأنها تحابي الرومان والفرثيين (في فارس)، ولكن حقيقة هدف أنطونيو كانت إثراء فرسانه»[٢٥].

ويؤكد بعض مؤرخي تلك الحقبة أن تدمر كانت مدينة مسالمة بدليل عدم وجود سور ليحميها آنئذ. وقد هرب سكان تدمر آنذاك بأملاكهم الثمينة نحو الفرات وعبروه وحاربوا فرسان أنطونيو بالنبال والسهام، ويذكر أن الجيش الروماني نهب تدمر ودمرها.

وتعليلاً لهذه الحادثة يقول المؤرخ بلين الأكبر أن القدر جعل تدمر قائمة بين امبراطوريتي الرومان والفرثيين وكان كل منهما يفكر بتدمر أول ما يفكر حين يبدأ النزاع بينهما.

غير أن شيفمان يذكر أن حملة أنطونيو كانت سبباً للحرب التي قامت بين الفرثيين والرومان حيث وقف ملوك سورية إلى جانب الفرثيين واستطاع أنطونيو أن يطرد الملوك المحليين إلى بلاد الفرثيين ويفرض على المدن السورية بما في ذلك تدمر أتاوات قاسية جداً.

وإن كان تحليل شيفمان موضوعياً فلعلنا أمام حقيقة أن سورية كانت عبرّت عن رفضها للاحتلال الروماني عبر استعانتها بالفرثيين لصد هذا الاحتلال.

وهذا ما سوف يتكرر مراراً في القرون الميلادية الثلاثة الأولى، لأن العداء التقليدي بين روما وفارس كان ينعكس على مدن بلاد الشام ولا سيما تدمر. وهذا ما دفع تدمر لاستغلال هذا الصراع والعداء لمصلحتها الوطنية كما سنرى لاحقاً.

في عام ١٨ م وحين أصبحت تدمر تحت سلطة روما أصبحت خطوط التجارة الدولية والمرافئ التجارية في سورية تحت سيطرة روما وبذا أصبحت تدمر نقطة التقاء القوافل المتجهة من دمشق أو حمص أو بصرى إلى الرافدين وفارس، ورغم العداء الروماني ـ الفرثي فقد كان من مصلحة روما إعادة النشاط للطريق الصحراوي المختصر عبر تدمر لكونه مباشراً وآمناً واقتصادياً.

وفي فترة حكم الامبراطور تراجان (٩٨ ـ ١١٧) م وضعت في تدمر حامية رومانية عسكرية وكان هدف تراجان إيصال حدود الإمبراطورية الرومانية حتى دجلة والخليج العربي وكانت تدمر آنذاك تمتلك أهمية استراتيجية في الدفاع عن الفرات الفاصل بين الامبراطورية الرومانية في حدودها الشرقية وبين بلاد الفرثيين مع الإشارة إلى سقوط البتراء عام ١٠٦ م بيد الرومان وتحول خط التجارة منها نحو تدمر.

عام ١٢٩م يزور تدمر الامبراطور أدريان ويمنح تدمر لقب «المدينة الحرة» وهذا ما أعفاها من دفع الضرائب للخزينة الامبراطورية وبالتالي شكّل دفعاً قوياً لاقتصاد تدمر التجاري.

ويذكر هنا أن أدريان وضع حاكماً تدمرياً على البحرين وسلم مدناً أخرى ليحكمها تدمريون. وهذا يدل على سعة الحيوية والانتشار التدمري والإثبات الحضاري لتدمر.

ولا يخفى في هذا المجال أن منح الإمبراطورية الرومانية الامتيازات للمدن السورية الشامية كان غايته توسيع القاعدة الاجتماعية لسلطة روما من أجل استقطاب سكان سورية إلى الدائرة الرومانية للوقوف في وجه الفرس، والذي يبدو أنه في القرن الثاني الميلادي ولا سيما زمن التعرفة الجمركية (١٣٧) م التدمرية كانت العلاقة بين روما وتدمر تحالفية وكانت سياسة روما أن إعادة الحقوق لتدمر للقيام ببعض شكليات الحكم تعطي التحالف محتوى واقعياً.

ومع مجيء السلالة السورية لحكم روما وفي ٢١٢ م تسجل النقوش التدمرية حصول تدمر على الحقوق التي تتمتع بها المستعمرات الإيطالية وهذا شكل حدثاً ومنعطفاً هاماً في تاريخها السياسي الذي سوف يتطور ويتفعّل اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً للوقوف في وجه الاحتلال الروماني.

خطوط التجارة الدولية في عصر تدمر الذهبي

منذ عام ٧٥ م وضع الرومان أيديهم بقوة على المحطات الرئيسية لخطوط التجارة الشمالية ما بين تدمر والرصافة وهذا ما دفع لإلغاء خدمات البتراء التجارية والتي كانت تمتد سلطة أراضيها على جنوب فلسطين والأردن وخليج العقبة وشبه جزيرة سيناء وبالتالي فإنها كانت تسيطر على شبكة القوافل بين مصر والخليج العربي وبين غزة والجزيرة العربية.

إن سلطة البتراء كانت تتضارب مع الخطة الاستراتيجية لروما وهذا ما دفع روما للقضاء عليها عام ١٠٦ م وبذا انتقل خط التجارة الدولية إلى تدمر حيث أصبحت تسيطر على كل الطرق التجارية في الشرق بين مصر والجزيرة العربية وأوربا من جهة وفارس والهند والصين من جهة أخرى.

وبذا وصلت تدمر إلى أوج نشاطها وازدهارها الاقتصادي في القرن الثاني الميلادي والذي سوف يؤدي في القرن الثالث إلى بلوغ فعلها السياسي والعسكري أقصى قمة له.

وقد تركز النشاط التجاري لتدمر بين الشرق الأقصى (الهند والصين) والبحر المتوسط وكان طريق الحرير البري الذي ينطلق من الصين إلى روما عابراً تركستان وأفغانستان والهند وباكستان وإيران وبلاد الرافدين وبلاد الشام ثم المتوسط تشكل تدمر محطة أساسية من محطاته لا بل عاصمة تجارية هامة.

يقول خالد الأسعد: «أصبحت تدمر مركزاً تجارياً هاماً لا بل عاصمة التجارة الدولية في العالم كله بين الشرق الذي كان صناعياً والغرب الذي كان زراعياً.»[٢٦]

ولم تكتف تدمر بأن تكون محطة تجارية لا بل مارست التجارة البحرية فقد كانت مراكب تدمر تسير إلى الهند لتجلب البضائع من ميناء بربريكوم وكان لها أسطول تجاري في الخليج العربي وقد وصلت فعالياتها التجارية المباشرة إلى الصين وقد عثر على نحت بارز يمثل تاجراً تدمرياً يقف إلى جانب سفينته ويبدو أن السفينة كانت تبحر في مياه الخليج العربي. بالإضافة إلى صلات تجارية مع أرمينيا والأناضول والجزيرة العربية[٢٧].

وكان يجري في تدمر تنظيم معارض تجارية دورية في أراضي المعبد وكانت تعتبر معارض دولية. ويذكر شيفمان أن يوليان بن سعد التدمري جاء إلى جنوب فرنسا إلى غاليا كي يؤسس شركة تجارية كما تذكر النقوش أن التدمريين أصبحوا من ذوي الشأن في مدن بلاد الرافدين وكانت حكومة تدمر تشجع التجار ليطوروا أعمالهم في تلك البلاد وكانت ثمة قوافل تدمرية تتوجه إلى وادي النيل.

وكان يأتي تدمر من جزيرة العرب اللآلئ والبخور والأحجار الكريمة ومن سلوقية دجلة قرب بغداد كانت تأتي الألبسة ومن الساحل السوري الأواني الزجاجية والفضة والذهب والصباغ الأرجواني ومن لبنان ومنطقة دمشق الخمور ومن كشمير وهيملايا وتركستان الصينية كانت تأتي التوابل والأصبغة والحرير والفرو.

ويذكر خالد الأسعد أن ثمة امتزاجاً أو تبادلاً ثقافياً بين حضارة موهنجيدار في جنوب الهند وبين تدمر سواء في التماثيل أو في طريقة اللباس وهذا ما دفع المؤرخ أبيان للقول أن التدمريين هم تجار الهند.

وكان لتدمر موانئها، فعلى الخليج العربي كان لها ميناء ميسان وعلى النيل في مصر كان لها ميناء قفط قرب أسوان ووطدت علاقتها مع دورا أوربوس على الفرات ووضعت فيها حامية عسكرية لحماية تجارة تدمر. بالإضافة إلى حصن آخر على الفرات هو حلبية زلبية.

وكان لها مراكز تجارية في بلاد فارس ويذكر فرانتس ألتهايم أن التدمريين أقاموا خطاً تجارياً بين البحر الأحمر ومصب نهر الهندوس.

وكان ثمة طريق تجاري مباشر بين تدمر والبتراء ثم منها إلى سناء وغزة، وحين كان الفرثيون في بلاد فارس يغلقون طريق الحرير المار عبر تدمر، كانت الأخيرة تستعيض عنه بطريق بحرية عبر الفرات إلى الخليج العربي فالشرق الأقصى.

أما من ناحية الانتشار التدمري في أوربا فقد عثر في جنوب بريطانيا على آثار تدمرية قد تكون انتقلت عن طريق التجار أو الجنود وكان ثمة مستوطنة تدمرية في بودابست في هنغارية وعلى نهر الهندوس في تركستان عثر على قطع تدمرية وفي الجزائر عثر على كتابات تدمرية تتحدث عن حنين التدمريين للعودة إلى بلدهم.

أما في روما فقد عثر على الكثير من النقوش الكتابية التي تعود لأشخاص من مختلف مناطق سورية وخاصة من تدمر وقد تبادلت تدمر السفراء مع بعض مدن الجنوب العربي فقد عثر في وادي بيجان على نص يتحدث عن احتفال إقامة الملك هناك لتكريم بعض المواطنين وكان يرافقه السفراء الأجانب ومنهم سفير تدمر وسفير الهند.

كما بنى التدمريين في روما معبداً في حي يدعى حي الشرقيين وأقاموا مشاغل ومصانع في الخليج العربي وقد حدد العالم أولينغ المسافة التي تقطعها القوافل بين عاصمة الصين وتدمر بأنها تقدر بمسيرة ست سنوات للذهاب والإياب.

أما عدد السفن التي كانت تمخر في المحيط الهندي بين البحر الأحمر ومرافئ الهند ذهاباً وإياباً فكان ١٢٠ سفينة[٢٨] ولعل إقرار مجلس الشيوخ التدمري لنص التعرفة الجمركية التدمري عام ١٣٧ م هو دليل على ازدهار النشاط التجاري التدمري وقوة اقتصادها.. مع ملاحظة أن تدمر لم تكن مدينة تجارية فقط.

فقد أشار هورست كلينغل إلى أن النشاط التجاري التدمري جلب لها الثراء لكن الزراعة التي وفرتها الواحة شاركت أيضاً في توطيد هذا الرفاه فتدمر لم تكن معزولة بل كانت على اتصال مباشر مع القرى المنتشرة في البادية والتي تعيش على الزراعة والرعي وكان الزيتون هو النبات الأساسي في تدمر كما أنهم زرعوا الحنطة والتمر والتين والرمان والتفاح والأجاص والبطيخ.[٢٩]

وبالإضافة إلى كل هذه الفاعلية التجارية لمدينة وسط الصحراء فقد كان على تدمر أن تؤمن حماية القوافل وخطوط التجارة لهذا كان يتم تشكيل فرق من الهجانة لحفظ أمن القوافل ولا سيما المنطقة الممتدة من الفرات إلى حماه ودمشق.

وفي نقش تدمري يعود إلى عام ١٩٩ م جاء ما يلي:

بقرار من المجلس، والشعب تقيم العشائر التدمرية الأربع نصباً على شرف عقيل بن مكي بن عقيل بن سيفور عرفاناً له بالخدمات التي أداها إبان الحملة ضد البدو الرحل وكذلك لقاء تأمينه حماية للقوافل على نفقته الخاصة[٣٠]. وكانت حكومة تدمر تضع تمثالاً في ميدان المدينة لمن قدم عملاً جليلاً لتدمر كنوع من التكريم والاحتفاء.

ثقافة تدمر في القرون الميلادية الثلاثة الأولى

الكتابة التدمرية واللغة العربية المحكية

من المعلوم أن التدمريين كتبوا بالآرامية لكن لغة حياتهم اليومية كانت العربية بلهجاتها الشمالية، ويعزو البعض عدم كتابة تدمر بالكتابة العربية لأن هذه الكتابة كانت في طور الكمون وربما المخاض بالإضافة إلى أن الكتابة الآرامية كانت كتابة عالمية في ذلك العصر

وكما أسلفنا سابقاً فإنه مع القرن الأول الميلادي سادت القبائل العربية على تدمر ولئن كانت في نهاية العصر السلوقي تساوي في عديدها تعداد الآراميين فإنه مع القرن الأول الميلادي ومع تأسيس تدمر العربي عبر اتحاد القبائل الأربع الكبيرة فإن تتبع الكتابات التدمرية ينبئ عن محاولات بدايات لتعريب سكان المدينة فاستناداً إلى نقوش القرن الأول الميلادي يلاحظ أن المفردات العربية بدأت تتغلغل إلى الوثائق التدمرية وهو ما يعني بداية تعريب سكان المدينة وهذا ما يتضح أكثر من الأسماء العربية التي نصادفها في النقوش التدمرية بالإضافة إلى

استبدال للمصطلحات اليونانية باصطلاحات عربية وهذا دليل على أن هناك اتجاهاً معادياً لاستخدام الاصطلاح اليوناني.[٣١]

ومن الأمثلة على ذلك استبدال مصطلح DEMOS اليوناني الذي يعني اجتماع أو حشد باصطلاح عربي هو gbl التدمري عوضاً منه ويذكر الدكتور عدنان البني أنه مع مطلع القرن الميلادي الأول ساد العنصر العربي في تدمر وتجلى ذلك في أسرة أذينة زوج زنوبيا الذي كان من منبت عربي وكانت الأسماء العربية في تدمر لها الغالبية العظمى.

والجدير ذكره هنا هو أن الكتابة الآرامية تتألف من ٢٢ حرفاً وتكتب من اليمين إلى اليسار وحروفها هي نفس حروف اللغة العربية.

أما في مجال العمارة التدمرية فيذكر خالد الأسعد أن ٩٩ % من عمارتها ذات مخطط معماري سوري بينما يؤكد الدكتور سليم عبد الحق أن عمران تدمر ليس هلنستياً ولا رومانياً بل مزيجاً من العمرانين مع أصالة سورية سائدة بوضوح وقد حاول بعض الباحثين في مجال تاريخ العمارة أن يجرد تدمر من كل إبداع معماري أصيل ويلقيه على العمارة الرومانية.

لكن تاريخ كمبردج يذكر أن بعض العلماء يعتقدون أن سورية في مجال العمارة كانت متقدمة على روما لا بل كانت بالنسبة لها النموذج الذي احتذته وأن سورية تقدمت على روما في عبقريتها المبدعة وفي معارفها التقنية وفي مهارة عمالها.[٣٢]

وخير مثال على ذلك هو أبو لودور الدمشقي ٦٠ ـ ١٢٥ م الذي كان صديقاً للإمبراطور تراجان والذي استدعي إلى روما لبناء أهم وأكبر عمائرها ومنها السوق والميدان التراجاني والجسر العملاق على الدانوب وقوس النصر ودار العدل وعمود تراجان وما زالت بعض آثار إبداعاته موجودة في إيطاليا.

يقول بيانكي باندينيللي: «إن أكثر الدفعات الثقافية الحيوية كانت تأتي غالباً من مقاطعات الشرق سواء في الفكر أم من الفن ومنها يأتي أنشط رجال السياسية وأكفأ الموظفين والقادة العسكريين»[٣٣].

ويشير د. عبد الحق إلى فضل تدمر في إشاعة التاج الكورنتي الكلاسيكي على منافسيه التيجان الأيونية والطوسكانية في جميع أنحاء العالم آنذاك في أوربا وآسيا وأفريقيا بعد أن ابتدع في معبد بل بتدمر.[٣٤]

مجال المعتقدات الدينية:

فكما أسلفنا أن تدمر كانت واحة للتسامح والتعددية الدينية ، فثمة ٦٠ إلهاً وكافة أتباعهم يحيون حياة هانئة وولائهم لم يكن لجهة تدمر ولاءً دينياً بل ولاءً للمدينة ودولتها.

غير أن ما يلفت النظر في هذا المجال هو العثور في نفق نبع أفقا على نقوش وكتابات تكرّم إلهاً يحمل لقب «الرب الرحمن الرحيم» وقد ورد بالتدمرية (لبريك شمه عالما) الرب الذي بورك اسمه إلى الأبد الرحمن الرحيم ، حيث يؤكد شيفمان أن هذا الرب ومنذ منتصف القرن الثاني ميلادي عظمت شعبيته على أي رب آخر ويعتقد أنه كان مؤشراً لاتجاه نحو التوحيد.

والذي نعتقده أن هذا الاتجاه نحو التوحيد كان انعكاساً لوحدة المجتمع التدمري وانصهاره في وحدة حياة واحدة. ويذكر الباحث الفرنسي رينيه دوسو في هذا المجال أن الأنباط كانوا يعبدون الله كما عند التدمريين ويتحدث عن نقش عثر عليه في تدمر يعود إلى عام ٢٠٠ ميلادي يقول: «اهداء للرب الواحد الأحد الرحمن الرحيم».[٣٥]

النحت التدمري:

يعتبر النحت التدمري بمثابة مدرسة فنية قائمة بحد ذاتها ويمكننا أن نطلق عليها تعبير مدرسة الحياة. فالمعلوم أن أغلب هذه المنحوتات هي منحوتات جنائزية مصدرها المدافن ومع هذا فالتعابير التي توشحها هي تعابير تضج بالحياة. ويؤكد الباحثون على أن النحت التدمري كان فناً ناضجاً وواضحاً وقائماً بذاته منذ القرن الأول قبل الميلاد لابل يؤكد الدكتور البني على أن الفن التدمري لا يخرج عن التقاليد المعروفة للفن السوري في القرون الميلادية الأولى وغيره من الفنون الشقيقة ويركّز العالم الفرنسي سيريغ على ذلك بقوله: لم يتمكّن الحكم الروماني الذي دام قرنين ونصف مع كل ما رافقه من احتكاك مع الغرب من تغيير النحو الغريب في ترتيب الأشكال المنحوتة ذلك النحو الذي يشارك فيه التدمريون جيرانهم الشرقيين.[٣٦]

أما في مجال التأثيرات الفنية للثقافات الأخرى المعاصرة فلا بد أن نؤكد على فعل المثاقفة بين تدمر وبين المراكز الثقافية في العالم آنذاك مع التركيز على مبدأ الأصالة الذي يعتبر خصيصة رئيسية من خصائص الحضارة السورية بعامة.

يقول العالم سيريغ: ان التأثير الغربي في الفن التدمري سطحي بوجه الإجمال وهذا يدل على عدم الاستعداد للتأثر ليس بأسلوب أجنبي وانما بعقلية أجنبية. وهذا الأمر يرد أيضاً عند جان شارل بالتي حيث لوحظ أن التدمريين يبدون مقاومة ثقافية نحو روما. ولدى دراسة اللقى التدمرية التدمرية ولاسيما في بانونيا على نهر الدانوب لوحظ أن البيئة التحتية المحلية المشرقية ظاهرة بقوة وحيوية ولاسيما في اللباس الوطني التدمري وفي ارتداء اللباس المحلي ويصل للقول على أن هذه الظاهرة هي شاهد على المقاومة لظاهرة الاندماج (٣٧).

ولا تبتعد الباحثة ماري موريهات عن المضمون العام الذي ذكرناه بقولها:" إن أقرب الأساليب الفنية شبهاً بالأسلوب الفني التدمري نجدها في الأساليب التي ازدهرت في القرون الثلاثة الميلادية الأولى في سورية الداخلية والنحت النبطي في الأردن وجنوب سورية".[٣٨]

الحياة اليومية في تدمر:

تنبغي الإشارة إلى أن العيد السنوي عند التدمريين كان في ٦ نيسان وهو يوم مقدس أطلقوا عليه اسم «اليوم الطيب». ولم يحفل التدمريون بالموت كثيراً وتخلو المدافن من المرفقات الجنائزية الثمينة لغلبة العقلية التجارية على الاعتقادات الماورائية فمن العبث وضع أشياء ثمينة مع الميت الذاهب إلى بيت عالما أي بيت الأبدية. وتحوي الشواهد التدمرية على كلمة «حبل» أي «أسف» على الميت.

ويبدو أنه لم يكن لديهم اعتقاد بحياة مادية بعد الموت بدليل استخدامهم للمدافن البرجية في معارك الدفاع عن تدمر لابل وكانوا اذا فتحت ثغرة في سور تدمر أثناء الحروب فسرعان ما يغلقونها بالقبور الحجرية.

وكانت التدمريات يتمتعن بملكية خاصة ويقدن القوافل التجارية كما دلت المنحوتات. وكان اسم تدمر يستخدم كاسم علم مثل تدمر بنت حسان[٣٩] وكانت حكومة تدمر تشرك الفقراء في بعض أرباح القوافل.[٤٠]

وجاء في كتاب تدمر لستاركي والمنجد أن سكان تدمر كان تعدادهم حوالي ٣٠ ألف نسمة موزعين على حوالي ١٠ كيلومتراً مربعاً في حين كان عدد سكان بلاد الشام في القرن الثاني ميلادي حوالي ٧ مليون نسمة.[٤١]

اليهود وتدمر:

جاء في التلمود: «يا لسعادة من سوف يرى نهاية تدمر فقد

اشتركت في هدم المعبد الأول والثاني.. ففي المرة الأولى قدمت ٨٠ ألفاً من الرماة!!؟ ولهدم المعبد الثاني ٨ آلاف».

ففي عام ٧٠ للميلاد قام القائد الروماني تيطس الروماني بمهاجمة القدس وكعادتهم كان الرومان يستعينون بالرماة التدامرة المشهورين في العالم آنذاك. ولا نعتقد أن عدد الرماة الوارد في التلمود صحيحاً فهذه المبالغات ألفناها في المرويات اليهودية ونعتقد أن غايتها استدرار شفقة الأمم عليهم كونهم واقعون تحت ضروب عقدة الاضطهاد.

وفي عام ١٣٧ للميلاد يساهم التدمريون مع الجيش الروماني في الهجوم على اليهود ولسنا هنا في وارد البحث عن أسباب هذا الهجوم وما يعنينا هنا هو أن اسهام تدمر في هذا المجال كان استجابة لظروف سياسية دولية أملتها مصالح روما السياسية مع الأخذ بعين الاعتبار أن مدينة دورا أوروبوس حوت في القرن الثالث الميلادي على كنيس يهودي وجالية يهودية ولم تقترب منهم حكومة تدمر بأي سوء طالما أكدوا تفاعلهم مع الهيئة الاجتماعية حيث كانت ترابض في المدينة حامية عسكرية تدمرية.

ولكن الأغرب أن يلجأ كاتب التوراة إلى تلفيق وتزوير/كما العادة/ حيث يرد في سفر أخبار الأيام الأول وسفر الملوك الثاني على أن «سليمان بنى تدمر في البرية»!!؟. علماً أن بين سليمان /إن وجد أصلاً/وبين عصر تدمر الذهبي حوالي ألف عام!؟.

وكنا أجرينا سبراً لآراء عدد من الباحثين والعلماء السوريين والعرب والأجانب حول هذه النقطة ونشرناها في إحدى المجلات اللبنانية [٤٢] ولأهمية هذا السبر فقد أرفقناه في نهاية الكتاب مع الانتباه إلى أجوبة بعض العلماء الأجانب، الذين هربوا في إجابتهم من الموضوعية عبر التفلسف واستخدام عبارات مطاطة ومبهمة لا مكان لها في نطاق الأبحاث العلمية الرصينة.

الصراع السياسي بين إمبراطوريات عالم القرون الميلادية الثلاثة الأولى

كان العالم القديم في عصر تدمر يتألف من أربع إمبراطوريات: ففي الشرق كانت بلاد فارس التي حكمها الفارثيون (٢٤٧ ق. م ـ ٢٢٦ م) ثم الساسانيون (٢٢٦ م ـ ٦٥١ م). وفي الهند كانت المملكة الكوشانية أما في الصين فكانت تحكم سلالة هان. وفي الغرب كانت روما التي امتدت إمبراطوريتها من الأطلسي وبحر الشمال غرباً إلى الفرات شرقاً ومن الراين والدانوب شمالاً إلى الصحراء الكبرى جنوباً.

وفي حين أن مملكة كوشان وهان لاتهمنا لجهة البحث بتاريخ تدمر فاننا سنحصر اهتمامنا ببلاد فارس والرومان وانعكاس ذلك على تدمر التي كانت حدودها /حسب شلومبرجيه/ بعد دراسته لنقوش تدمر في القرن الثاني ميلادي تمتد من الشمال والشمال الشرقي وعلى امتداد الفرات ثم عبر منطقة سهل الرصافة في الجنوب حتى خربة بلعاس ومن هناك إلى خربة الفي وعبر قصر الحير وسهل الضو. [٤٣]

الدولة الفرثية ثم الساسانية في بلاد فارس:

في عام ٢٤٧ ق. م انفصلت دولة الفرثيين عن الدولة السلوقية، ومع دخول الرومان إلى سورية والأناضول احتدم الصراع بين الفرثيين وروما وكان الفرات فاصلاً بينهما ونظراً لوقوع تدمر على الخط الفاصل فقد لعبت دوراً حاسماً في التوازن الدولي القائم آنذاك، ويبدو أن الصراع الفرثي ـ الروماني كان على الخطوط التجارية الدولية ولا سيما خط الهند والصين وكان الفرثيون كلما سنحت الفرصة لهم يغلقون هذا الخط في وجه الرومان وبالتالي في وجه تدمر والتجارة التدمرية وهذا ما كان يدفع بتدمر كي تستخدم الفرات في نقل بضائعها إلى الخليج العربي وهذا ما دفع الرومان أيضاً في عهد تراجان إلى اجتياح عاصمتهم طيسفون بالقرب من بغداد عام ١١٤ م ثم في عهد سبتيم سفير عام ١٩٧م ثم عام ٢٣٣م على الساسانيين ورثة الفرثيين.

كانت حدود الدولة الفرثية تمتد من أقصى شرق إيران إلى نهر الفرات غرباً ومن أرمينيا شمالاً إلى إقليم كابل في الجنوب الشرقي وكانت حدودها تنكمش أو تتبدل تبعاً للظروف الدولية.

عام ٢٢٦ م تقوم دولة الساسانيين على أنقاض الدولة الفرثية وكحيوية أي دولة جديدة تمتد إلى الهند وتصل إلى ماوراء النهر وإلى الغرب تصل حتى أنطاكية وتواجه الجيش الروماني وتأسر امبراطوره وجيشه وتنهي مملكة الحضر العربية وعام ٢٢٨ م يحتل الساسانيون مصبات الفرات ودجلة ومملكة ميسان (ميناء تدمر) على شط العرب ما أدى إلى قطع خط التجارة في وجه تدمر وسبب خنقاً لنشاطها التجاري وعام ٢٥٣ م يستولي الساسانيون على أنطاكية وعام ٢٥٦ م يستولون على دورا أوربوس.

إن وقوع تدمر بين الإمبراطوريتين سوف يؤدي إلى محاولة إيجاد موطئ قدم لها وسط صراع الأقوياء للمحافظة على خطوط تجارتها وهذا ما كان ليتحقق إلاّ بعدة عوامل:

الأول: الاقتصاد القوي والذي منح تدمر بنشاطها التجاري قوة ومنعة.

الثاني: وجود قيادة وطنية تصون كرامة وحدود وشعب تدمر وهذا ما تحقق في أسرة أذينة وزنوبيا في القرن الثالث ميلادي.

الثالث: ضعف إحدى القوتين، الكبيرتين وهذا ما حصل لروما بدءاً من سقوط حكم السلالة السفيرية ٢٣٥ م وإنهاء أذينة للقوة الساسانية حين احتل عاصمتها طيسفون ٢٦٧ م.

الإمبراطورية الرومانية:

يعود الفضل إلى أغسطوس (٢٧ ق. م ـ ١٤ م) في وضع القواعد الأساسية التي قام عليها النظام الامبراطوري الروماني في كافة أوجهه ثم توالى على عرش روما الأسرة اليولیانية (نسبة إلى يوليوس قيصر) من ١٤ م ـ ٦٩ م ثم الأسرة الفلافية ٦٩ ـ ٩٦ م. [٤٤] ثم تأتي مرحلة حكم فيها أباطرة أطلق عليهم لقب الأباطرة الصالحين وذلك من ٩٦ م ـ ١٨٠م.

وفي عام ١٩٣ م ونتيجة لضعف الأباطرة وتدخل الجيش في الإدارة قام الحرس الامبراطوري بعرض الامبراطورية للبيع في المزاد ورسا المزاد على أحد أعضاء مجلس الشيوخ «د يدوس يوليانوس» حيث اشترى العرش بـ ٢٥ ألف سترسة وهنا تدخّل سبتيم سفير اللبدي من مدينة لبدة الفينيقية في ليبيا زوج الحمصية جوليا دومنا لينقذ الامبراطورية من الانهيار ولتبدأ فترة حكم الأسرة السفيرية من ١٩٣ ـ ٢٣٥ م

ولا يمكن فهم الاعتبارات التي قادت سبتيم سفير لاعتلاء عرش روما سوى سعيه لإعادة الاعتبار لمفهوم العرش كونه رجلاً عسكرياً ومن ثم اعتبار إحساسه بالانتماء إلى العروبة بمفهومها الحضاري وهذا ما جعله في نظر الكثيرين [٤٥] منتقماً من الاجتياح الروماني للشرق ولقرطاج حيث أن أول ما فعله عند اعتلائه العرش أن أعاد الاعتبار إلى قبر هانيبعل حيث بنى له تمثالاً من المرمر وأهداه إلى «أكبر رجل حرب بين قدماء الرجال» ويتأكد هذا الأمر أكثر في منح تدمر في عهد كركلا عام ٢١٢ م لقب مستعمرة وجعلها تابعة لولاية «فينيقية» وعاصمتها حمص.

وينبغي أن نشير هنا إلى أن فترة حكم الامبراطور فيليب العربي ٢٤٤ ـ ٢٤٩ م لعرش روما لم تشهد أي اهتمام بتدمر واقتصر اهتمامه على مدينته شهبا في حوران.

وبعد انقضاء حكم الأسرة السفيرية عام ٢٣٥ م دخلت الامبراطورية الرومانية حقبة من الفوضى السياسية امتدت من ٢٣٥ م وحتى ٢٨٤ م فقد دمر الاقتصاد وأصبحت قيمة النقد منخفضة إلى درجة الصفر وتعرضت بلاد الإمبراطورية إلى هجمات من وراء الحدود.

ففي عام ٢٥٠ م انتصر القوط على الإمبراطور داسيوس وقتلوه وفي عام ٢٦٠ م انتصر الساسانيون على الإمبراطور فاليريان وأسروه واستطاعوا احتلال المناطق الواقعة إلى غرب الفرات وهذا ما سوف يؤثر على تدمر وتجارتها وسوف يدفع تدمر كي تدافع عن نفسها في غياب الجيش الروماني المتهالك.

يقول جميس برستد أنه وبانتهاء حكم الأسرة السفيرية حدث الانفجار العظيم في الإمبراطورية الرومانية وهذا ما جعل الجيش يتدخل في تعيين الأباطرة حتى أنه وخلال تسعين سنة بلغ عدد الأباطرة الذين اغتيلوا ثمانين امبراطوراً معظمهم من غير الإيطاليين.(٤٦)

ومقابل هذه الفترة كان عصر الملوك التدامرة (حسب هورست كلينغل) قد بدأ يصعد.. وبدأت تدمر تقطف ثمار وجود اقتصاد متين وتجارة ناشطة وقيادة واعية في وقت تبدّل على عرش روما من ٢٣٥ـ٢٧٠م ٣٧ إمبراطورا وبالإضافة إلى ذلك كانت تدمر قد أعدّت جيشاً مكنّها من الدفاع عن نفسها ، ونتيجة لكل هذه الحيوية التدمرية أخذ دور تدمر يكبر ويتعاظم في وقت كانت الأوبئة تجتاح روما عامي ٢٦٠ ـ ٢٦٥م وتذكر المراجع التاريخية أنّ الملاريا فتكت بسكان روما وتذكر المصادر التاريخية أن خمسة آلاف إنسان كانوا يقضون يومياً واستمرت هذه الحال لعدة أسابيع.

ووسط هذه الحال كان نجم تدمر يلمع ويتعالى لتجد لها مكاناً جديراً بما تستحق بين الأمم ولتبدأ بلعب الدور القوي والحاسم في الحياة السياسية السورية وفي عالم المتوسط وشرقه بشكل عام.

تدمر وعصر الملوك التدامرة

اعتباراً من منتصف القرن الثالث الميلادي سوف يكون لتدمر شأن على الساحة السياسية العالمية آنذاك وذلك لعدة اعتبارات:

أولاً: حكم تدمر من قبل أسرة أذينة منذ عام ٢٥٣ م وهذا ما وطد دعائم النظام السياسي في تدمر الذي أخذ يدرس المعطيات الدولية والإقليمية والمحلية ويوّظفها لمصلحته.

ثانياً: الانهيار في مؤسسات الإمبراطورية الرومانية وتكالب الأباطرة على بعضهم البعض.

ثالثاً: ثمة محرض من جهة الدولة الساسانية حيث كانت هذه الدولة تطمع بسد منافذ التجارة في الخليج العربي مستغلة ضعف روما ما جعل تدمر تتنكب هذه المهمة وتصد الساسانيين عن ذلك.

لقد كان حكم دولة أذينة زنوبيا نموذجاً واقعياً للإمبراطورية الرومانية في الشرق. ففي عام ٢٦٢ م وعام ٢٦٧ يشن أذينة /وكانت زنوبيا زوجته تشاركه في معاركه/ حملة على الساسانيين ويصل عاصمتهم طيسفون واستطاع أن يسيطر على معظم مدن سورية والرافدين بما فيها أنطاكية وقد بقيت أنطاكية تحت سيادة تدمر حتى سقوط تدمر عام ٢٧٣ م.

وبذا أصبح أذينة ملكاً على سورية بما فيها كليكياو بلاد العرب وكبادوكيا وأرمينيا.

وبحكم التقاليد العسكرية الرومانية أعلن أذينة نفسه إمبراطورا وكذلك ابنه وهذا يعني أنه أصبح على قدم المساواة مع الإمبراطور الروماني. وتشير المعطيات حسب شيفمان إلى أن أذينة كان يحظى بدعم السوريين خارج تدمر أيضاً.

وقد كانت ألقابه «كاهن الشمس» و«أسد الشمس المروع المخيف» أما ألقابه الإمبراطورية فكانت «امبراطور الرومان استراتيجي الرومان» و«رئيس القناصل» و«الملك القدسي» «ملك الملوك ومجدد الشرق كله». (٤٧) لقد استغل أذينة فترة ضعف الإمبراطورية الرومانية ليعيد الفاعلية المشرقية العربية ضد الرومنة واستطاع أن يكون صاحب السيادة المطلقة على آسيا الرومانية من أرمينيا حتى جزيرة العرب.

والجدير ذكره هنا هو أن أذينة ومنذ ٢٢٥ م كان عضواً في مجلس الشيوخ الروماني وعندما وضع حداً للتمدد الساساني بدا وكأنه أنقذ روما من الانهيار لكنه كان يسعى كما يبدو إلى أمرين:

أولهما: إظهار الفاعلية العسكرية والسياسية لتدمر وضمان مصالحها الحيوية.

ثانيهما: الشروع في اعتلاء العرش الروماني بعد القضاء على الخطر الساساني.

ولكن هذا لم يحصل بسبب تعرضه للقتل مع ابنه من زوجته /غير زنوبيا/ في عام ٢٦٧ م. وكالعادة يشير بعض المؤرخين إلى دور زنوبيا في قتله وقتل ابنه كي تأخذ سدة الحكم بعده ، غافلين أن من له مصلحة في قتله بالدرجة الأولى هم الساسانيون كانتقام منه والرومان كخوف ، من «مقوم الشرق كله» و«القائد العام للجيوش الرومانية في سورية» حسب الألقاب الرومانية ولم يخطئ مومسون حين قال: إن المؤرخين الرومان كانوا يدونون ما هو حري بالحذف ويحذفون ما هو جدير الأهمية بالتدوين.(٤٨)

وثمة شيء آخر نلاحظه في تكتيك أذينة كرجل دولة وقد يدفع هذا ببعض التحاليل غير الموضوعية حول استراتيجيته ففي عام ٢٦٠ م وفي عهد الإمبراطور غاليانوس قام أحد السوريين واتخذ من مدينة حمص مقراً له وأخذ يطالب بعرش روما وأمر بسكّ نقود عليها صورة إله الشمس ، لكن أذينة مضى إلى حمص وقضى على هذا التمرد.

إن تحليل هذه الحادثة السطحي يقول: أن أذينة كان يدافع بذلك عن العرش الروماني غير أن خصائص وروحية الحضارة السورية عبر التاريخ تؤكد أن أذينة لم يشأ أن يقف أحد أمامه حجر عثرة في طريق اعتلاء عرش روما وباللحظة المناسبة ويبدو أن هذا المشروع انتقل إلى زوجته زنوبيا.

والذي يبدو من كل ذلك هو أن عجز الأباطرة الرومانيين من القضاء على تدمر آنذاك دفعهم إلى عمل كل ما من شأنه أن يبقيها ولو شكلياً في إطار الإمبراطورية الرومانية ويكسب ود حكامها.

بعد مقتل أذينة وابنه تقام في تدمر النصب التذكارية التي تخلده (٤٩) ويرث ابنه وهب اللات ألقاب والده ولكونه دون السن القانوني فقد أدارت زنوبيا دفة الحكم في تدمر. ويبدو أنها كانت تكمل مشروع زوجها. ويشير شيفمان إلى أن زنوبيا كانت ترغب أن تكون سلطتها مماثلة في وضعها لسلطة جوليا دومنا بعد موت زوجها سبتيم سفير وهذه كانت وجهة نظر الأعراف القانونية الرومانية.

وهذا ـ إن صحّ ـ يشير بدلالة قاطعة إلى تطلع زنوبيا لاعتلاء عرش روما حيث تذكر المعطيات بنائها لعربة إمبراطورية أمرت بصنعها آملة أن تدخل روما بها.[٥٠]

واستطاعت زنوبيا استغلال أحوال الإمبراطورية المنهارة لمصلحة تدمر ومصلحة مشروعها ذي البعد الإمبراطوري. فحين أرسل الإمبراطور غاليان القائد الروماني هيركليانوس لحرب الفرس، تعقبتّه زنوبيا حتى نجا بصعوبة بالغة منها. وحين هزم توطد نفوذ زنوبيا في سورية وبلاد الرافدين. ولم تكن تميل لعقد تحالف مع الرومان. وفي عهد الإمبراطور كلاوديوس الذي اهتم بإصلاح أحوال شعبه استغلت زنوبيا هذا الوضع واحتلت مصر عام ٢٧٠ م ثم احتلت الأناضول وصولاً إلى أنقره وبذلك أصبح كامل القسم الشرقي من الإمبراطورية الرومانية تحت سلطة تدمر ويعتقد أن الجيش التدمري توجه إلى مصر عبر سيناء مروراً بالبتراء.

وباكتمال دائرة الفتوحات التدمرية أصبحت إمبراطورية تدمر تمتد من البوسفور إلى دجلة إلى النيل شاملة كامل مصر وقسم كبير من الجزيرة العربية وبلاد الشام. ويبدو أن احتلال مصر لم يكن ذا مغزى عسكري فقط بقدر ما كان يؤمل منه بقطع الغلال والتموين عن روما فالمعلوم أن بلاد الشام ومصر كانتا سلة الغلال للإمبراطورية الرومانية.

بالإضافة إلى ذلك فإن احتلال مصر كان يعني احتلال أكبر مرافئ الشرق وهو الإسكندرية وبذا تستطيع تدمر أن تحول تجارة هذا المرفأ لصالحها حيث أنه ومنذ عهد أغسطس قيصر كانت الإسكندرية تجهز ما لا يقل عن ١٢٠ سفينة للوصول إلى الموانئ الهندية وهذه نقطة لم تكن في صالح تجارة تدمر.[٥١]

ويبدو أن قطع الغلال عن روما كان غايته إنهاك روما المتهالكة من أجل اعتلاء زنوبيا لعرشها. ففي عام ٢٧١ م تعلن زنوبيا استقلال تدمر ويؤكد ول ديورانت على أن انتصارات زنوبيا لم تكن إلا فصلاً من مسرحية واسعة النطاق هي مسرحية انهيار روما.[٥٢]

وفي موازاة مشروع زنوبيا الإمبراطوري كانت روما المنهكة تسعى إلى لملمة أشلائها وقد حصل لها ذلك عبر استلام العرش مجموعة من الأباطرة الاليريين الذين ينتسبون إلى البلدان الواقعة جنوب نهر الدانوب وقد عرفت شعوب هذه المنطقة الواقعة تحت السيادة الرومانية أن توفق بين أصلها وميلها إلى الطبيعة الرومانية ودليل ذلك أن موقف الأباطرة الاليريين الذين حكموا عرش روما لم يتغير من الإمبراطورية الرومانية وثقافتها. فقد بذلوا جهودهم في سبيل الحفاظ على التقاليد الرومانية ـ وكان أورليان /خصم زنوبيا/ أحد هؤلاء الأباطرة ويعتقد أنه نشأ في مستوطنة رومانية في يوغسلافيا (بنونيا السفلى).

يقول فرانتس إلتهايم: كان القيصر الاليري أورليان ٢٧٠ ـ ٢٧٥ م يعارض ما لم يكن له لون روماني في الفلسفة والأدب السياسي وأخذ يحارب تقلب السوريين وأحلام ملكة تدمر.[٥٣]

بالإضافة إلى هذا فقد أمر ببناء سور حول روما لدرء الأخطار عنها وفي وقت كانت تدمر محاطة بسور مدعم بأبراج مربعة.

وبعد أن وطّد أورليان أحوال الإمبراطورية الرومانية على الدانوب من هجمات البرابرة واستقرت أموره توجه بنظره إلى الشرق حيث تدمر التي قطعت الخطوط التجارية عن روما وسحبت المؤن والغلال لصالحها فما كان من أعضاء مجلس الشيوخ الروماني إلا أن يصرخوا عالياً نجّنا أيها الإمبراطور من زنوبيا.

فقد أدخلت زنوبيا شبح الفقر إلى كل بيت في روما.[٥٤] وتوجه أورليان بجيشه إلى الأناضول واستعادها وأرسل جيشاً رومانياً لاستعادة مصر وتمّ له ذلك. وفي النصف الأول من عام ٢٧٢ م يتواجه أورليان مع زنوبيا في أنطاكية عاصمة سورية آنذاك.

أورليان الذي يريد المحافظة على عرش روما والذي لقب بـ «يد على سيف» مقابل زنوبيا الحالمة أيضاً بعرش الإمبراطورية والتي تحمل لقب (أوغستا).

ويعود الجيش التدمري إلى حمص ويتواجه مع الجيش الروماني ثم يعود الجيش التدمري إلى تدمر ويتحصن خلف أسوارها آملاً بأن يتدخل الأعراب في إلحاق الهزيمة بجيش أورليان ولكنهم حاولوا ولم يفلحوا بذلك فحاصر أورليان تدمر وقطع خطوط الإمدادات عنها و التي كانت ترد من العرب البدو أو من الساسانيين أو الأرمن.

وحصلت مراسلات بين أورليان وزنوبيا في وقت كان الرومان يسخرون من أورليان الذي يحارب امرأة حيث قال لهم: «ليتكم تعرفون من هي هذه المرأة وأي امرأة أقاتل وليتكم يا من تعتبرون أنفسكم رجالاً تشبهون زنوبيا في أي صفة من صفاتها، وماذا سيقول التاريخ إذا غلبتني زنوبيا..؟» وأجهد أورليان حصار تدمر وفشل في اقتحام أسوارها فقرر التفاوض مع زنوبيا ويبدو أنه صاغ رسالة آمرة لزنوبيا بأن تستلم وتسلم المدينة له.

غير أن زنوبيا أجابته: «لم يجرؤ أحد من قبلك أن يطلب مني ما طلبته أنت... في الحرب كل شيء يحسم بالشجاعة.... إنك تطلب مني الاستسلام.. إن الأعراب قد قهروا جيشك وإذا ما جاءتني الإمدادات فإنك ستتخلص من غرورك وتتوقف عن طلب استسلامي... أيها الإمبراطور.. الأرجوان هو لباس الملوك ولكن بالنسبة لي سيكون خير الأكفان.».

فما كان من أورليان إلا أن أمر بالهجوم حيث عزز الحصار وأسر بعض عملائها من الفرس وقام بشراء ضمائر البعض من الأعراب البدو لتسقط تدمر تحت سلطة الجيش الروماني وتروي المصادر أن زنوبيا اتجهت بنفسها نحو الفرات كي تطلب مساعدة الساسانيين فتم إلقاء القبض عليها وفتحت أسوار تدمر أمام الجيش الروماني.[٥٥]

لتسقط تدمر عام ٢٧٢ م وتترك فيها حامية مؤلفة من ٦٠٠ عسكري روماني. وما أن قفل أورليان راجعاً نحو روما حتى قامت ثورة في تدمر قضت على الحامية ـ فما كان من أورليان إلا أن عاد إليها حيث قتل الشيوخ والأطفال والنساء وهدمت البيوت والمعابد على رؤوس ساكنيها، حصل ذلك في ربيع عام ٢٧٣ م.

والجدير ذكره هنا هو أنه حين ثارت تدمر على الحامية الرومانية قامت ثورة في مصر تعترف بتدمر مرة ثانية، وهددت روما بالمجاعة لانقطاع طرق الإمداد.[٥٦] بالإضافة إلى ذلك فحين سقوط تدمر أضربت البتراء، وقام سكانها بتدمير المعبد الرئيسي الذي أصبح مركزاً لعبادة الإمبراطور الروماني.[٥٧]

وعام ٢٧٤ م يعود أورليان إلى روما وقد لقّب بأنه «مرجّع العالم» غير أنه في عام ٢٧٥ م يتم اغتياله على يد جماعة من ضباطه. والجدير ذكره هنا هو أنه أمر ببناء معبد لاله الشمس الحمصي في روما إبّان عودته إلى روما[٥٨] ما يؤكد قوة الروح السورية العربية مقابل الخواء الروحي لروما.

مصير زنوبيا:

تضاربت الآراء حول مصير زنوبيا، فمن قائل أنها أسرت في طريقها في طلب الإمدادات من الساسانيين، ومنهم من يقول أنهّا انتحرت بالسمّ، وبعض الآراء تذكر أنهّا أخذت إلى روما حيث شوهدت في موكب النصر للامبراطور أورليان، لا بل أعطت أوصاف المركبات التي رافقت الحفل كمركبة أذينة ومركبة زنوبيا [٥٩] إلخ وثمة رأي يقول أنّه أطيح برأسها بعد موكب النصر.

أمّا التاريخ الأوغستي فيذكر أن زنوبيا أنهت حياتها بهدوء كسيدة رومانية حيث تزوجها أحد أعضاء مجلس الروماني وأنجبت أولاداً منه. لكننا ولأننا بدأنا بحثنا هذا بخصائص وروحية الحضارة السورية، فإننا نرى حسب الخط الحضاري التاريخي الاجتماعي لسورية من جهة، ولأن مشروع زنوبيا وممارستها للصراع الحضاري ضد الرومنة، لا يمكن أن يجعل زنوبيا تستسلم للذل ولحياة السكينة بعد دمار مدينتها. وبذا نكون أميّل في رأينا إلى أن زنوبيا أسرت ولكن الذي حصل فيما بعد إمّا أنها أضربت عن الطعام حتى الموت أو تجرّعت السم وهي في طريقها إلى روما.

وأخيراً وللإضاءة على هذا الأمر بشكل آخر وأعمق لا بأس من أن نحلل شخصية ونمط وتفكير زنوبيا وانعكاس ذلك على مصيرها.

اسم زنوبيا التدمري هو «بت زبّاي» أي ابنة العطاء أو العطية، أما زنوبيا فهو اسم يوناني ـ لاتيني أطلق على ملكة تدمر وهو مؤنث زنوبيوس وتعني هذه (قوة زيوس الحيوية) كانت تتكلم المصرية واليونانية، علّمها مستشارها لونجين الآداب اليونانية حيث كان استناداً للفلسفة في أثينا قبل مجيئه إلى تدمر.

قرأت زنوبيا تاريخ روما باليونانية (وهذا على قاعدة أعرف عدوك). وكتبت كتاباً حول تاريخ الشرق ومصر، يقول عنها خصمها أورليان: لو تعلمون أناتها في المجالس، وثباتها في القرارات، وحزمها مع الجنود، وتسامحها عند الضرورة. إن أذينة مدين لها بنصره على الفرس.

أما مواقفها الفكرية فنلاحظ أنه بالإضافة إلى لونجين، ضمت إليها الأسقف بولس السميساطي أسقف أنطاكية. وبعد موت الامبراطور غاليانوس وعودة الأباطرة الاليريين تجّمع أتباع الفلسفة الأفلاطونية الحديثة ومعظمهم سوريون، أمثال فورفوريوس وكلينيكوس ولونجين وغيرهم في سورية، وكان أملهم أن تكون زنوبيا ملكة تدمر دعماً لهم ويصبح بلاطها مركزهم الفكري. وهذا ما كان، حيث وضع لونجين في البلاط التدمري وأصبح موجهاً لسياسة تدمر.

يقول فيليب حتي: أنه في القرن الثالث للميلاد أصبحت أفامية مركز مدرسة الأفلاطونية الحديثة وتتمتع ببعض الأهمية وقد أسسها أمبيلوس تحت رعاية زنوبيا. [٦٠] أمّا اشبنجلر فيقول في كتابه تدهور الحضارة الغربية: إن الأفلاطونية الحديثة تمتّ إلى الحضارة العربية ولا يدخلها في سياق الحضارة اليونانية بينما يلاحظ فرانتس إلتهايم أن معظم أتباع أفلوطين كانوا من أصل سوري. [٦١]

فكما كانت الرواقية ذات بعد مشرقي في وجه المتضادات الفلسفية اليونانية كانت الأفلاطونية الحديثة التي تبنّتها زنوبيا تمتلك البعد المشرقي والسوري في القرن الثالث الميلادي الذي شهد أحياء قوياً للهلنستية في نواحي الفلسفة.

وللإيضاح ولفهم خلفية زنوبيا الفكرية فإن الأفلاطونية الحديثة نشأت على يد أفلوطين ٢٠٥ ـ ٢٧٠ م وكان لها فروع في الاسكندرية وسورية وأثيناو ترتكز على أنّ أول شيء انبثق من الواحد هو العقل وهذا العقل له وظيفتان وظيفة التفكير في الله ووظيفة التفكير في نفسه ومن هذا العقل انبثقت نفس العالم التي لها ميلان، ميل علوي نحو الله وميل سفلي نحو الطبيعة.

ويلاحظ أنّ الأخلاق في الأفلاطونية الحديثة هي نفس الأخلاق في الرواقية وكذلك علم ما بعد الطبيعة، ولم يكن ثمة صراع بين المادة والروح بل ثمة صلة. [٦٢] وفي هذه الصلة تكمن روح المشرق العربي عبر تاريخه وفي هذا التاريخ المستند على التوازن المادي ـ الروحي، كانت تدمر، وكانت زنوبيا المعبرّ عن جوهر الحضارة السورية العربية.

الهوامش

(١) مجلة البناء اللبنانية ـ العدد ٨٣٧ ـ تاريخ ٥/٢٣ /١٩٩٢ ـ من حوار أجريناه مع الباحث خالد الأسعد أمين متحف وآثار تدمر.
(٢) د. عدنان البني ـ تدمر والتدمريون ـ وزارة الثقافة ـ دمشق ١٩٧٨
(٣) جان بابليون ـ امبراطورات سوريات ـ ترجمة: يوسف شلب الشام ـ دار العربي ـ دمشق ١٩٨٧
(٤) اسحق شيفمان ـ المجتمع السوري القديم ـ ت: د حسان اسحاق ـ مؤسسة الوحدة ـ دمشق ١٩٨٧
(٥) المرجع السابق.
(٦) المرجع السابق.
(٧) رينيه دوسو ـ الديانات السورية القديمة ـ ت: موسى الخوري ـ دار الأبجدية ـ دمشق ١٩٩٦
(٨) شيفمان ـ مرجع سابق.
(٩) خ. تيكسيدور ـ ب. كانيفه ـ الحياة الدينية في سورية قبل الاسلام ـ ت: موسى خوري ـ الأبجدية ـ دمشق ـ ١٩٩٦
(١٠) فرانتس التهايم ـ اله الشمس الحمصي ـ ت: ايرينا داوود ـ العربي ـ دمشق ـ ١٩٩٠
(١١) الحوليات الأثرية السورية ـ مجلد ٤٢ ـ ١٩٩٦ ـ ندوة طريق الحرير ـ تدمر.
(١٢) تيكسيدور ـ مرجع سابق.
(١٣) شيفمان ـ مرجع سابق.
(١٤) الحوليات ـ مرجع سابق.
(١٥) د. علي أبو عساف ـ آثار الممالك القديمة في سورية ـ وزارة الثقافة ـ دمشق ـ ١٩٨٨
(١٦) الحوليات ـ مرجع سابق.
(١٧) أرنولد توينبي ـ تاريخ البشرية ـ ج١+ج٢ ـ ت: نقولا زيادة ـ دار الأهلية ـ بيروت ـ ١٩٨٢
(١٨) ي. بيكرمان ـ الدولة السلوقية ـ ت: حسان اسحاق ـ الأبجدية ـ ١٩٩٣
(١٩) المرجع السابق.
(٢٠) عدنان البني ـ المرجع السابق.
(٢١) بيكرمان ـ مرجع سابق.
(٢٢) الحوليات ـ مرجع سابق.
(٢٣) البني ـ مرجع سابق.
(٢٤) شيفمان ـ مرجع سابق.
(٢٥) شيفمان ـ مرجع سابق.
(٢٦) مجلة البناء ـ مرجع سابق.
(٢٧) الحوليات ـ مرجع سابق.
(٢٨) جيمس بريستد ـ العصور القديمة ـ ت: داوود قربان ـ مؤسسة عز الدين ـ بيروت ـ ١٩٨٣
(٢٩) هورست كلينغل ـ آثار سورية القديمة ـ ت: قاسم طوير ـ وزارة الثقافة ـ دمشق ـ ١٩٨٥
(٣٠) شيفمان ـ مرجع سابق.

(٣١) شيفمان ـمرجع سابق.
(٣٢) عدنان البني ـأبولودور الدمشقي ـوزارة الثقافة ـدمشق ـ ١٩٩٠
(٣٣) المرجع السابق.
(٣٤) الحوليات ـمرجع سابق.
(٣٥) رينيه دوسو ـمرجع سابق.
(٣٦) تدمر والتدمريون ـ
(٣٧) الحوليات ـمرجع سلبق.
(٣٨) الحوليات ـمرجع سابق.
(٣٩) تدمر والتدمريون.
(٤٠) الحوليات ـمرجع سابق.
(٤١) جان ستاركي ـصلاح الدين منجد ـتدمر ـمديرية الآثار ـ١٩٤٧
(٤٢) مجلة البناء اللبنانية ـ العددان ـ ٨٣٥ ـ ٨٣٦ ـ تاريخ: ٥. ٩ ـ ٥. ١٩٩٢/١٦
(٤٣) الحوليات ـمرجع سابق.
(٤٤) د. نقولا زيادة ـ المسيحية والعرب. دار قدمس ـدمشق ٢٠٠٠
(٤٥) جان بابليون ـمرجع سابق.
(٤٦) جيمس بريستد ـمرجع سابق.
(٤٧) شيفمان ـمرجع سابق.
(٤٨) اشبنغلر ـسقوط الحضارة الغربية ـت: أحمد الشيباني ـدار مكتبة الحياة ـ ج١.
(٤٩) شيفمان ـمرجع سابق.
(٥٠) شيفمان ـمرجع سابق.
(٥١) بريستد ـمرجع سابق.
(٥٢) ول ديورانت ـ قصة الحضارة ـ الحضارة الرومانية ـ ت: محمد بدران ـ جامعة الدول العربية.
(٥٣) فرانتس التهايم ـمرجع سابق.
(٥٤) مجلة البناء ـ ٨٣٧.
(٥٥) تدمر والتدمريون ـمرجع سابق.
(٥٦) شيفمان ـمرجع سابق.
(٥٧) شيفمان ـمرجع سابق.
(٥٨) التهايم ـمرجع سابق.
(٥٩) شيفمان ـمرجع سابق.
(٦٠) فيليب حتي ـ تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ـ ج ١ ـت: جبرائيل جوروكمال يازجي ـدار الثقافة ـبيروت ـ ١٩٨٢
(٦١) التهايم ـمرجع سابق.
(٦٢) زكي نجيب محمود وأحمد أمين ـ قصة الفلسفة الحديثة ـ دار المكتبة المصرية ـ ١٩٣٥.

مراجع البحث الأخرى

- هورست كلينغل ـ تاريخ سورية السياسي ـ ت: سيف الدين دياب ـ دار المتنبي ـدمشق ـ١٩٩٨
- الفرد هالدر ـ العموريون ـ ت: د. شوقي شعث ـ دار الأبجدية ـ ١٩٩٣ ـ دمشق.
- فيليب حتي ـ خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى. ج١ ـ الدار المتحدة ـ بيروت ـ ١٩٨٢
- عدنان البني ـ الفن التدمري ـ المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ـ دمشق.
- تاريخ الشرق الأدنى القديم ، ايران والأناضول ـد. سامي سعيد أحمد ورضا جواد الهاشمي ـوزارة التعليم ـالعراق.
- روبرت وود ـأثار تدمر.ت: ابراهيم أسعد. دار المعارف ـ حمص ـ١٩٩٣
- مجلة دراسات تاريخية ـعدد ٣٩ ـ ١٤٠ ـ ١٩٩١ ـملف طريق الحرير.
- عبد الرحمن بدوي ـربيع الفكر اليوناني ـمكتبة النهضة المصرية ـ١٩٧٩
- جلانفيل داوني ـأنطاكية القديمة ـت: ابراهيم نصحي ـدار النهضة ـمصر ـ ١٩٦٧
- كافين رايلي ـ الغرب والعالم ـ ت: عبدالوهاب المسيري وهدى حجازي ـ عالم المعرفة ـالكويت ـعدد ٩٠
- مجموعة مقالات في مجلة ـ syria ـ اصدار المعهد الفرنسي لآثار الشرق الأدنى ـ ifpo.

News from Palmyra

A new sarcophagus seen from the south east necropolis by the National team in 4.December.2008

عثرت البعثة الوطنية العاملة في تدمر على سرير جنائزي هو الأول من نوعه في تدمر ، وهو يتميز باحتواءه على مشهد يضم رب الأسرة وهو كاهن ذو مرتبة هامة مضطجع على فراش وثير ويحمل صحن التقدمات ويرتدي الزي التدمري المؤلف من سروال مزركش يعلوه قميص فاخر ، وتجلس بجانبه زوجته بوقار مرتدية الثوب الطويل وتلتف بعباءة تغطي رأسها وتبرز من جانبي غطاء الرأس خصلات الشعر الملفوفة ، ويقف على يسار الكاهن خادمه مرتدياً اللباس التقليدي الشائع في تدمر)حاملاً قرن الخصب (بوق الخصب في اليد اليسرى وممسكاً باليمنى صحن أو كأس التقدمات. وتزين هذا المشهد زخارف نباتية على شكل أغصان مورقة وملتفة لم يسبق أن شوهدت بهذا الشكل في المنحوتات المشابهة بتدمر ، وهذه الزخارف النباتية تؤكد على مضمون الخصب والتجدد وبعث الحياة الثانية بعد الموت. كما تحتوي اللوحة على نص كتابي باللغة التدمرية ترجمتها: ملكو ابن تيما ابن حنبل حمطوش وزوجته ربنة.

يذكر بأن البعثة الوطنية قد عثرت على هذا السرير الجنائزي المتميز خلال أعمالها المستمرة في مدفن أرضي يقع في منطقة المدافن الجنوبية الغربية بتدمر ، وعلى الغالب يعود هذا المدفن للقرن الثاني أو الثالث للميلاد.ولا تزال أعمال البعثة الوطنية مستمرة.

▪ المهندس وليد أسعد مدير آثار ومتاحف تدمر